

مفهوم المطابقة وجمالياتها دراسة بلاغية تحليلية نقدية

1/ د. وداعة عبد الله علي سرّار

أستاذ مساعد - كلية النيل الأبيض للعلوم والتكنولوجيا

Email : widaasarar@gmail.com

تلفون : 0122008696

2/ د. آدم محمد أبو القاسم عبد الله

أستاذ مساعد - كلية النيل الأبيض للعلوم والتكنولوجيا

Email : adamgassim@hotmail.com

تلفون : 0122403539

المستخلص

لقد وظّف القرآن الكريم الأساليب البلاغية المختلفة على نحو لم يألّفه العرب في آدابهم من قبل، فكان معجزاً في أسلوبه وبيانه، ومن ذلك وفرة الصور البلاغية التي وظفها في البيان والمعاني، والمقاربات التي من شأنها توصيل الفكرة في ذهن المتلقي، تطرقت هذه الدراسة إلى تعريف المطابقة لغةً واصطلاحاً، ومعرفة أبعادها؛ وبيان مكانتها وأثرها في نسج النص القرآني، ومن ثم توضيح مفهومها في كتب البلاغة المختلفة، ففي مظانها ألفت الطبايق أحوالاً: فمنه ما هو قريب المأخذ بعيد المنفذ، وهذا الضرب ألدُّ وأطف، والمسح أجلى للطبايق أساليب شتى، حكمت الثراء القرآني والبيان العربي في إشباع الأذواق بالمعاني والمباني، فمنه ما زواج بين اسمين، ومنه ما خالف بين اسم وفعل، أو جمع بين فعلين فضلاً عن الطبايق الخفي وطبايق الترشيح، وهو ديباجة مردفة تزيد الكلام روناً وبهاءً ، بيد أن ورود الطبايق بهذه السياقات المتعددة يدل على تناسب المقال مع المقام وتلك ضالة البلغاء. وخلصت الدراسة إلى أن الطبايق من الأساليب الراسخة في القرآن بسبب أثره في إبراز الحق والباطل، وترسيخ مآلات كلِّ في نفس المتلقي فيكون القول حجة له أو عليه، كما في الطبايق تحقيق لدقة المعنى من خلال المعايرة بين معنيين مما يرسم حداً واضحاً للمعنى المراد تبليغه، وأن جمال المطابقة يكمن في إدراك المعنى لا الوقوف على عارض اللفظ.

Abstract :

The Holy Quran uses the various styles of phrase making in a unique way not found before in Arabs literature .it is a miracle in its style and communiqué such as the a availability of phrasemalirs image that functioning communiquéand meaning in approximating that lead to complete under standing to the receiver .The study defines the approximating idiomafrccally and conventionally .The study handles the approximating and its dimensions, place and role in the Holy Quran text .Then to explain its concept in different phrasemalirsbooks .It surmising various condition as: near to take ,for to execute and this is good and nicer .Survey is better for approximating in different styles , this reveals the richness of the Holy Quran and Arabian clearness in satiate the tastes with meanings and one Noun and verb also join between two verbs rather than the hidden approximating and renominating approximatingwhich is preamble increase the speech glary and vividness .the approximating comes in different ways that indicate to harmoniong between the text and status and this is missed of rhetoricians. The study has some finding as:approximating is deep roated in the Holy Quran because of its great role in revealing the rightness and wrongness and establishing the understanding in the receiver and the speech turn to be evidence either for or against and a approximating lead to achieve the accurate meaning throughout comparison between two meaning which lead to clear cat limit to the intended meaning and the beauty of the approximating hides in reaching the meaning not to the accidental saying.

ميررات الدراسة:

دفع الاعتقاد السائد أن المطابقة حدان قائمان على أسلوبين ليس إلا، ونفي هذا المؤلف باستعراض أنماط له في طية هذه الدراسة، فلا شيء أعدى للعلم من الإلفة والعادة.

أهمية الدراسة:

لما كانت الكلمة هي الرسالة التي تحمل المضامين إلى المتلقين دون اختصارٍ مخلٍ أو تطويلٍ مملٍ، انصرفنا إلى هذه الغاية، فألفنا الدراسة في المطابقة؛ بما فيها من الدقة ما يفي بهذا الغرض، كما أن الغوص في معرفة ضرورها وأسرارها تعين على تدبر كتاب الله تعالى.

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج التحليلي الذي يقوم على عرض المسألة ورصد الشواهد على تنوع أنماطه وأساليبه ومن ثم دراسته وتحليله ببيان قيمته في وضوح المعنى المتحصل من الطباق.

معنى المطابقة:

وتسمى الطباق والتضاد والتكافؤ كما سماها قدامة والتطبيق عند ابن المعتز، وهي الجمع بين المتضادين؛ أي متقابلين في الجملة (22) والطاق من الفنون البلاغية التي بدأ بحثها مبكراً مع الخطوات الأولى في مسيرة البلاغة العربية، فالخليل بن أحمد الفراهيدي يشير إليه مبيناً معناه اللغوي بقوله: (يقال طابقت بين الشيئين إذ جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما) (19).

وفي لسان العرب(تطابق الشئان بمعنى تساويا، وقد طابقه مطابقة وطباقاً، والمطابقة الموافقة، والتطابق الإتفاق، وطابقت بين الشئين إذ جعلتهما على شيء حذو واحد وأصقتهما، وهذا الشيء وفق هذا ووفاقه وطباقة...والمطابقة أن يضع الفرس رجله موضع يده، ومطابقة الفرس جريه: وضع رجله موضع قدميه)(25) .

والمطابقة عند المبرد:(الجمع بين الشيء وما يقابله في الكلام)(24) وعند قدامة:(التكافؤ)(8) ، ويسميتها ثعلب (مجاورة الأضداد)(6).

ولقد تبلور مفهوم المطابقة مع تبلور مفهوم البلاغة ؛على أيدي دارسين شغفوا بالبحث عن منابع الجمال والبلاغة والإعجاز، ومن بين هؤلاء الجاحظ (255هـ)، الذي أدرك أن غاية الكلام ومنتهاه هو المطابقة لمقتضى الحال ، ولقد أعطى الجاحظ لمفهوم المطابقة معنى أدق وأغرب ، حينما ذهب إلى أن أصل المطابقة مأخوذ من حرفة الجزار الحاذق ،الذي يحسن ضربه المفصل ؛ فيصيب ملتقى العظمين ،لذا نجده كلما تحدث عن البلاغة أشار إلى الإصابة والإيجاز ، كالنص الذي أورده لابن الأعرابي القائل: " قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي :ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال :شيء تجيش به صدورنا فتقذف به على ألسنتنا وقال له معاوية : ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال الإيجاز ، قال له معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار: (أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ)(7)

صور الطباق:

أ / طباق الإيجاب:(وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً أو سلباً)(27)

في ظلمة الحيوانية وبقاء الروح مكفوفة الإدراك من غير غاية نبيلة تسعى إليها؛ لتسعد بها سعادة أبدية.

ومنه قول طفيل:

بساهم الوجه لم تقطع أباجله يسان وهو ليوم الروع مبذول

الطباق بين (يسان ومبذول)، فالأول فعل والآخر اسم، فروعة المطابقة تظهر في الصورة المتغيرة للفرس، ففي السلم تظهر على محياه آثار الدعة والنعيم والصون؛ لأجل الزينة والتفاخر، وهذا لا يمنع أن يكون الجواد نفسه مستعداً لأداء مهامه الأخرى، فيخلع عن وجهه ذلك الجلال والجمال، ويستعيضه في الحال ثوب الحرب والنضال.

ومن لطيف التطابق قول ابن رشيق:

وقد أطفئوا شمس النهار وأوقدوا نجوم العوالي في سماء عجاج(11)

الطباق بين الفعلين (أطفئوا وأوقدوا) فجمال المطابقة يبدو جلياً في الصورة الحسية التي رسمها الشاعر لأولئك القوم الذين داروا رحى الحرب فدكوا الأرض وأثاروا الغبار حتى بلغ عنان السماء، فعندئذٍ حجبت أشعة الشمس الحارقة عن الأرض، وفي الوقت الذي يتداعى إلى خيال المتلقي معاني العتمة وفقدان الرؤية بسبب غبار الحرب العالق الذي أحال النهار إلى ليلٍ، يأتي بالمفارقة البادية في إيقاد العتمة بيزوغ أسنة الرماح تموجها وهي ملطخة بدماء الأعداء كأنها نجوم متلألئة في ظلمة الليل. وقيمة الصورة تكمن في كون المفارقة بين "أطفئوا" و "أوقدوا" تتم عن تناغم وتشاكل بديع في إجلاء فكرة واحدة، وهي تصوير فداحة الحرب وضراوتها.

وفي ذلك يرى الباحثان أن الطباق يكون أروع وأجمل عندما يكون الضدّان متطابقين لفظاً

ومعنىً.

ومن الطباق ما سماه بعضهم **التدبيح**، وهو في اللغة من: **الدبح**: النفس والتزيين ، فارسي معرب ،
 ودبح الأرض المطر يدبجها دبجاً : روضها ، والدبج ضرب من الثياب مشتق من ذلك (25). وفي
 الإصطلاح: أن يذكر الشاعر أو الناثر ألواناً يقصد الكناية بها أو التورية، بذكرها عن أشياء من
 مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء، أو غير ذلك من الفنون أو لبيان فائدة الوصف بها(2)..

وتحدث عنه القزويني في الطباق ، إذ ذكر : (أن من الناس من سمى نحو ما ذكرناه تدبيجاً

، وفسره بأن يذكر في معنى من المدح أو غيره ألوان بقصد الكناية أو التورية). (22)

وقد مثل القزويني لتدبيح الكناية ببيت أبي تمام:

تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر(5)

يشبه الشاعر عيون الأوانس بعيون البقر الوحشي في سعة الحدقة وحسن سوادها ،
 كما يشبه قدودهن بالرماح في الاعتدال و التثني ، ف (هاتا وتلك) هما ليستا إلا اسمي إشارة ،
 الأول إشارة للقريب وهو الأوانس ، والثاني إشارة للبعيد وهو الأغصان ، وليس هناك تضاد، وإنما
 صارا متضادين بجعل المشار إليه بها تارة بعيداً بعداً تاماً ،وتارة بعيد في الجملة لا بعداً تاماً .
 ويعد صاحب تحرير التحرير: هذا البيت من أفضل بيوت المناسبة المعنوية، لما انضم إليه فيها
 من المحاسن ، فإن فيه مع المناسبين التشبيه من غير أداة والمساواة والإستثناء والطباق
 اللفظي ، وائتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين ، فأما المناسبة فيه قد عرفت ، وأما التشبيه ففي
 قوله: (مها وقفا) فإن التقدير كـ(مها)وكـ(قفا)، وحذف الأداة ليدل على قرب المشبه من المشبه
 به. وأما الاستثناء البديعي ، ففي قوله: (إلا أن هاتا أوانس)، وقوله: (إلا أن تلك ذوابل) ليس
 للموصوفات التأنيث ، وينفي عنها النفار والتوحش، وكذلك فعل في الاستثناء الثاني فإنه أثبت
 لهن اللين ونفى عنهن اليبس والصلابة. وأما المطابقة ففي قوله: (الوحش وأوانس) و (هاتا
 وتلك) فإن هاتا للقريب وتلك للبعيد . وأما المساواة فلفظ البيت لا يفضل عن معناه ولا يقصر
 عنه. وأما الائتلاف فلكون ألفاظه من وادٍ واحد، متوسطة بين الغرابة والاستعمال وكل لفظة منها
 لائقة بمعناها، لا يكاد يصلح موضعها غيرها . وأما التمكين فاستقرار قافية البيت في موضعها
 وعدم نفاها في محلها(9).

وقد أورد صاحب المنهاج أمثلة للطباق الخفي، كقول الشاعر :

فإن تقتلوني في الحديد فإنني قتلت أحاكم مطلقاً لم يكبل(21)

المطابقة في البيت بين (في الحديد) و (مطلقاً لم يكبل) حيث يفهم من (في الحديد) أنه (مقيد) والتي هي ضد (مطلقاً) ومن هنا تتجلى بوضوح جماليات الطباق الخفي بين المعنيين .

وقد أورد أيضاً قول السموأل بن عاديا :

إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

الطباق موجود بين (خلا، قام) ، وقد يبدو فيهما التباعد من أول وهلة ، في حين أن التقارب بينهما قائم في التضاد الخفي وقد يفهم من (خلا) مات ، و من (قام) ما حل محل الذي مات ؛ أي حياً ، ففي ذلك يظهر إعجاب المتلقي عندما يدرك مقصد الشاعر من ورائها .

ومن فاسد هذا الضرب قول أبي الطيب :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو إساءة مجرم⁽¹⁷⁾؟

فإن المقابلة الصحيحة ، بين (المحب والمبغض) لا بين (المحب والمجرم) ، وليست متوسطة أيضاً حتى يقرب الحال فيها وإنما هي بعيدة، فإنه ليس كل من أجرم إليك كان مبغضاً لك .

والثاني: إيهام التضاد:

وهو ما كان التقابل فيه بين الظاهر من مفهوم اللفظين، وإن يكن بين حقيقة المراد منهما تقابل

ما . كقول دعبل الخزاعي :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

ومن خلال ما سبق، أبانت الدراسة أن المطابقة لا تكون بين اللفظين المتطابقين فحسب، بل لا بد أن يكون هناك تطابق في المعنى مع استصحاب الصور والمشاهد والظلال التي ترسمها الفكرة الكلية للمعنى المراد تبليغه، لذا أنها تنمي الذهن بالصور المتخيلة.

بلاغة المطابقة:

تكمّن بلاغة المطابقة في عرض المتضادات في نسق مؤتلف يثير انتباه السامع للفكرة، فيشتدّ تقبله لها؛ لما بين التفكير والتعبير من انسجام. كما أنها تضيف على الكلام جمالاً ورونقاً، وتزيده حسناً وقبولاً، لاسيما اتاحتها فرصة للمتلقى لإعمال الفكر والخيال لرسم صورة بين المتضادات. كما أنها تسهم في إيضاح المعنى وإظهاره، وتأكيدُه وتقويته؛ عن طريق المقارنة بين الضدين، وتصور أحد الضدين فيه تصور للآخر، وعلى هذا فالذهن عند ذكر الضد يكون مهياً للآخر ومستعداً له، ومما يلحق ببلاغة الطباق أنه يزيد من وضوح الفكرة ويجعل لها ظلالاً من المعاني الممتدة والتي لا يحدها سوى ضيق أفق المتلقي وعجزه عن رصد المعنى وتوليده كما أن الجمع بين معنيين متضادين يجعل كل معنى مرآة للمعنى الآخر يزيد كل الآخر ثراءً وتكثيفاً ومن هنا قيل: والصدّ يظهر حسنه الضد، وما ذاك الحسن إلا إيجاز المعنى وترسيخه في نفس متلقيه.

النتائج:

- أن (المطابقة) عبارة عن صورة جمالية تعكس روعة المتضادين سواءً أكانا في الألفاظ أم المعاني.
- تتيح فرصة للمتلقى لإعمال الفكر والخيال لرسم صورة بين المتضادات.
- تسهم في إيضاح المعنى وإظهاره، وتأكيدُه وتقويته؛ عن طريق المقارنة بين الضدين.

- أن تصور أحد الضدين فيه تصور للآخر، وعلى هذا فالذهن عند ذكر الضد يكون مهياً للآخر.
- أن الجمع بين معنيين متضادين يجعل كل معنى مرآة للمعنى الآخر .
- أن جماليات الطباق الخفي بين المعنيين، يكمن في إدراك المعنى لا الوقوف على عارض اللفظ.

التوصيات:

ومن خلال الطواف على ألوان البديع لا سيما المطابقة وضح جلياً أن علم البلاغة زاخر بالدرر النفيسة التي لم تكشف بعد، وهي قطعاً بحاجة لجهد الباحثين لتمعن المعاني المخبوءة بستار الكلم، ولتحقيق ذلك أوصت الدراسة بالآتي:

- على الباحثين التركيز على معاني الأضاد لا على ظاهر الضد اللفظي .
- الاطلاع على ما خلفه علماء البلاغة العظام، بغية الوصول إلى ما توصلوا إليه من جهد .
- على الباحثين عرض المفاهيم البلاغية بصورة تنمي أذواق العامة .

فهرس المصادر والمراجع

_ القرآن الكريم:

- (1) ابن الأثير: ضياء الدين، المثل السائر، تحقيق/الشيخ كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط1، سنة1419هـ -1998م.

(2) ابن أبي الأصبع المصري: تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق/حنفي محمد شريف، سنة 1383 هـ .

(3) امرؤ القيس: ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - مصر

(4) بشار بن برد: ديوانه، تحقيق صلاح الدين الهواري، دار مكتبة الهلال، سنة 1998م.

(5) أبو تمام: ديوانه، تحقيق/الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، سنة 1413 هـ - 1992م.

(6) ثعلب: أحمد بن يحيى، قواعد الشعر، تحقيق/ رمضان عبد التواب، طبعة دار المعارف، سنة 1966م.

(7) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط4، دار الفكر،

(8) جعفر: أبي الفرج قدامة، نقد الشعر - تحقيق/محمد عبد المنعم خفاجة، نشر مكتبة الكليات الأزهرية-القاهرة، ط1، سنة 1399 هـ - 1979م.

(9) جعفر: أبي الفرج قدامة نقد النثر، المكتبة العلمية، بيروت، مقدمة نقد النثر .

(10) الحموي: ابن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، سنة 1987م. ط1.

(11) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محي الدين، الطبعة الرابعة دار الجيل، بيروت، سنة 1972م.

(12) السبكي: بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، مصر، ط2، سنة 1342 هـ.

(13) أبو سنيت: الشحات محمد، دراسات منهجية في علم البديع، ط1، سنة 1414 هـ - 1994م.

(14) السموأل بن عدياء: ديوانه، شرح المرزوقي.

(15) السيوطي، جلال الدين : معترك الأقران، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، سنة 1408 هـ - 1988م.

(16) الصعيدي: عبد المتعال، بغية الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح، مكتبة المعارف - الرياض - الناشر: مكتبة الآداب، سنة 1420 هـ - 1999م.

- (17) أبو الطيب المتنبي: ديوانه، شرح أبي البقاء العكبري، دار الفكر.
- (18) ابن عريشاه: إبراهيم بن محمد، الأطول، تحقيق د/عبد الحميد هنداوي.
- (19) الفراهيدي: الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر.
- (20) الفرزدق: شرح/مجدد طراد، دار الكتاب العربي - بيروت، ط1، سنة1412هـ -1992م.
- (21) القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء.
- (22) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، تحقيق/ عبد الحميد هنداوي، طبعة مؤسسة المختار الثالثة، سنة1428هـ -2007م.
- (23) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة الصفا، ج5، الطبعة الأولى سنة1423هـ -2002م.
- (24) المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة1427هـ -2006م.
- (25) ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط3، سنة1414هـ -1994م.
- (26) المعجم الوسيط، ط4، سنة1429هـ -2008م، مكتبة الشروق الدولية.
- (27) الهاشمي: السيد أحمد، جواهر البلاغة، تحقيق/د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية - صيدا بيروت، سنة1427هـ -2006م.
- (28) ابن هشام: أبي محمد عبد الملك، السيرة النبوية، دار البيان الحديثة، ط1، سنة1422هـ -2001م.
- (29) ابن يعقوب المغربي: مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح، دار الكتب العلمية - بيروت.